

عصر الولاة في الأندلس [97 - 138 هـ / 715 - 755 م].

يمتد من 97 هـ / 716 م، سنة مقتل عبد العزيز بن موسى بن نصير، إلى 138 هـ / 755 م، سنة مجيء عبد الرحمن الداخل، وهي مرحلة استغرقت حوالي أربعين عاماً تولى فيها حكم الأندلس اثنان وعشرون والياً، من بينهم عبد الرحمن الغافقي وعبد الملك بن قطن اللذين توليا السلطة مرتين. وكان بعض الولاة لا تستغرق ولايتهم أكثر من شهور معدودة، وذلك إما بقتلهم أو الثورة عليهم وعزلهم، وهذا يعنى أن عدم الاستقرار هو السمة الغالبة على هذه الفترة، ويعود ذلك إلى اضطراب السياسة العامة بعد وفاة الوليد بن عبد الملك وانتشار العصبية القبلية والشخصية، ونزاع العرب مع البربر.

ومع ذلك ورغم ما ميز هذه الفترة من اضطراب سياسي، فإن المسلمين استطاعوا أن يكملوا فتح الأندلس، ويواصلوا الفتوحات في ما وراء البربات ويؤسسوا الكثير من دعائم النهضة في الأندلس، كبناء المساجد لأداء شعائرهم الدينية، والقناطر والطرق التي كانت تقتضيها المواصلات سواء العسكرية أو المدنية، وشبكات الري باعتبار أن الزراعة كانت المورد الرئيسي للسكان، خاصة وأن الأندلس معروفة بكثرة أنهارها وعيونها وآبارها.

وسنقف عند أهم الأحداث التي تركت بصماتها واضحة في هذه الفترة:

أيوب بن حبيب اللخمي: (97 هـ / 715 م) بعد مقتل عبد العزيز بن موسى تولى أمر الأندلس أيوب بن حبيب اللخمي، وكتب إلى الخليفة يخبره بذلك لكن خلافته لم تدم إلا ستة أشهر، قام خلالها بحملة شمال طليطلة وبنى مدينة سماها باسمه (قلعة أيوب)، لكن الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك، في هذه الفترة لم يترك أيوب لمشاركته في مقتل عبد العزيز، فعزله وعين مكانه الحر بن عبد الرحمان الثقفي.

الحر بن عبد الرحمن الثقفي: (97-100هـ) اقتصر عمله على فض النزاعات بين العرب والبربر، ومقاومة القوط في الشمال، كما أصلح الجيش. وهناك من المؤرخين من يقول أنه أول من وصل إلى أربونة عاصمة إقليم سبتمانية خلال فترة حكمه، ومن أبرز أعمال هذا الوالي هو نقل العاصمة من اشبيلية إلى قرطبة. ولما وصل عمر بن عبد العزيز إلى منصب الخلافة عزله عن ولاية الأندلس.

السمح بن مالك الخولاني: (100-102هـ) وهو من خيرة ولاة الأندلس، فضلاً وصلاً وكفاءة وقدرة؛ عينه عمر بن العزيز، وطلب منه بان يبعث له بتقرير مفصل عن أخبار الإسلام والمسلمين في الأندلس، لأنه لم يكن يعرف شيئاً عنها، لكن السمع وجد الحياة الإسلامية بخير فكتب إليه بذلك، فأوصاه الخليفة بالعدل بين الناس والرفق بهم.

قام السمع بغزو جنوب فرنسا. وإذا كان الحر جاء إلى أربونة عن الطريق الشرقي فان السمع أخذ الطريق الغربي ففتح عدة مناطق، وتوغل في أرض أكتانيا، إلا أنه لم يستطع المحافظة على انتصاراته الخاطفة، إذ تعرض له دوق أكتانيا المسمى "أودو" بجيش كبير يبلغ أضعاف جيش المسلمين عند أحواز مدينة طولوشة (تولوز حالياً) فهزمه واستشهد السمع في هذه المعركة سنة 102هـ. وكان من بين قواده في المعركة رجل سيكون له شأن كبير في الأندلس هو عبد الرحمن الغافقي الذي تولى أمر الجيش واستطاع بذكائه وشجاعته وتجربته الحربية أن ينقذ ما تبقى من الجيش بالعودة إلى أربونة التي أصبحت قاعدة للمسلمين لغزو ما وراء جبال البرتات.

عبد الرحمن الغافقي (الولاية الأولى) (أواخر 102هـ/721م): بعد هزيمة المسلمين في طولوشة اختاروه والياً عليهم، إلا أن ولايته هذه لم تدم أكثر من شهرين، إذ أنه جاء في مرحلة انتقالية بعد موت السمع بن مالك.

عنبسة بن سحيم الكلبى: (103هـ - 107هـ) عينه والى المغرب بشر بن صفوان، وكان كالسمح بن مالك صالحاً قويا، ولما جاء عنبسة إلى الأندلس وجدها مضطربة بسبب هزيمة تولوز والحرب الأهلية مشتتة بين العرب القيسيين والعرب اليمنيين، وكذلك بين العرب والبربر، لذلك قضى أربع سنوات من ولايته يرتب أمور البلاد في خلق توازن بين أهلها. فنظم الإدارة ورسخ الهدوء في الولاية، ثم أخذ يفكر في محو آثار الهزيمة ويوجه تلك الحروب الأهلية إلى ضرب المسيحيين في الشمال فكون جيشا كبيرا وسلك نفس طريق السمع، فتوجه إلى إقليم سبتمانية فاتم فتحه بمدنه السبع الكبيرة، ثم فتح قرقشونة، بعدها فتح مدينة نيم ومنها انتقل إلى مقاطعة بروفانس، حتى وصل إلى ليون ففتحها ثم إلى بلدي ماسون وشالون، ثم توغل حتى بلغ مدينة أوتون في أعالي تهر الرن، وهناك من يقول أنه وصل إلى سانس التي لا تبعد كثيراً عن باريس، وفي سانس اعترض طريقه أسقفها، وكان عنبسة قد استنفذ جزءاً كبيراً من طاقته وذخيرته، لذلك قرر العودة إلى قرطبة حتى يرى ما حدث فيها من اضطرابات، ولكن أهالي البلاد قطعوا عليه خط رجعتة وانتهى الأمر باستشهاده هو الآخر سنة 107هـ فتولى مساعده عذرة بن عبد الله الفهري قيادة الجيش والعودة به إلى أربونة.

ومما كان يعاب على عنبسة أنه لم يكن يترك حاميات عسكرية في المدن التي دخلها، وهكذا سرعان ما بدأت المدن التي فتحها تتساقط الواحدة تلو الأخرى. ويعد عنبسة الفاتح الذي وصل إلى أبعد نقطة في بلاد الفرنجة.

وبعد عنبسة توالى على الأندلس سبعة من الولاة بين سنتي (107 - 112هـ) تفاقمت خلالها المشاكل، وازدادت الاضطرابات، وانتشر الخلل والخلاف بين الزعماء ورجال القبائل، وتجددت المنازعات بين العرب البلديين (وهم العرب الذين طال بهم المقام والعمل في إفريقية حتى سمو بالبلديين)، والشاميين.

عبد الرحمن الغافقي (الولاية الثانية): (112 - 114هـ) تولى على الأندلس سنة 112هـ، وقد كان قائداً بكل ما تحمله الكلمة من معاني القيادة، كالتجربة العسكرية والجرأة والشجاعة والعدل.

ولم يكن متعصباً لانتماء قبلي معين، فجال ربوع الأندلس، وحقق فيها توازناً واستقراراً، كما أنه أقنع الجميع بفكرة الجهاد التي جند نفسه لها منذ أن كان قائداً مع السمح بن مالك الخولاني، ولهذا اعتنى بالجيش وعمل على تقويته بعناصر جديدة. وفي سنة 114هـ خرج بجيش كبير لمواصلة عملية الغزو في فرنسا فهاجم أكيثانيا، وعبر نهر الجارون واستولى على مدينة بوردو وعندما عجز أودو دوق أكيثانيا من مقاومة المسلمين انضم إلى شارل مارتل محافظ قصر مملكة الفرنجة والرجل القوي في تلك المملكة، رغم الخلاف الذي كان بينهما. وقد استغل مارتل هذه الفرصة لأن ما كان يشغل باله هو القضاء على الزحف الإسلامي، فأطلقها صرخة مدوية باسم الدين حيث اجتمع لديه جيش كبير من إفرنج وألمان وبلغار. والتقى الجيشان في مكان بين بلدي تور وبواتيه يسمى بلاط الشهداء في رمضان سنة 114هـ ودارت بينهما معركة ضارية لمدة ثلاثة أيام انتصر فيها المسلمون أول الأمر وجمعوا غنائم كثيرة ثم حدث أن هاجم دوق أكيثانيا مؤخرة الجيش العربي حيث توجد الغنائم والنساء والاطفال، فتراجع البعض لإنقاذها فاحتل توازن المسلمين وانهمزوا واستشهد قائدهم عبد الرحمن وعدد كبير من رجاله، وانسحب الباقون تحت جنح الظلام.

عبد الملك بن قطن الفهري: (الولاية الأولى) (114-116هـ): كان لهزيمة جيوش المسلمين في بلاط الشهداء أثر سيء سواء في الأندلس أو في المشرق، فأراد هشام بن عبد الملك أن يعين على الأندلس والياً يتميز بالحدة والصرامة، فاختار عبد الملك بن قطن الذي استطاع أن يعيد تنظيم الجيش ويتلافى آثار الهزيمة، حيث استغل انشغال شارل مارتل بمشاكله الداخلية وعمل على استرجاع بعض المدن والمعازل في بلاد الإفرنج بادئا ببلاد الباسك شمال الأندلس، إلا أن الرجل كان يتميز بالظلم والجور بين رعيته فعزله والي مصر وإفريقية عبيد الله بن الحبحاب وعين بدله عقبة بن الحجاج السلوي.

- عقبة بن الحجاج السلوي (116هـ-121هـ) كان رجلاً عظيماً مثل الغافقي عمل أولاً على

استتباب الأمن في البلاد، وألقى القبض على عبد الملك بن قطن وسجنه وفرق أنصاره. وبعد أن استقرت له الأوضاع تفرغ للجهاد، فقوى جيشه، وركز نشاطه العسكري بالدرجة الأولى على المنطقة

الواقعة بين نهر الرون وجبال الألب، فاستولى على "آرل" و"فالنس" و"أفنيون" و"ليون" واقترب من إيطاليا. وقد أحس شارل مارتل بخطورته فتحالف مع ملك اللومبارديين في شمال إيطاليا، حيث اجتمع له جيش ضخم توجه به إلى "أفنيون"، فاضطر عقبة إلى التراجع إلى أربونة فتقدم إليه شارل مارتل، ولما علم عقبة بذلك بعث جيشاً عن طريق البحر، إلا أن مارتل اعترضه وقضى عليه، ولم تنج إلا فئة قليلة. وقد استغل عبدالمملك بن قطن الفرصة للقيام بانقلاب في قرطبة ضد عقبة.

عبدالمملك بن قطن: أقام عرب الأندلس عبد الملك بن قطن والياً عليهم للمرة الثانية، فكان عهده بداية عهد من الفتن والاضطرابات والحروب الأهلية؛ إذ اشتعلت ثورة البربر بسبب تعصب العرب لبني جنسهم وتعاليمهم على غيرهم، كما انفردوا بالمناطق الخصبة في السهول وعلى ضفاف الأنهار، بينما اكتفى البربر بالمناطق النائية والجبلية، ومع ذلك كانت الضرائب التي تفرض على البربر تفوق تلك التي تفرض على العرب، وهكذا ظهرت ثورات بربرية في مناطق مختلفة من الأندلس كجليقية واسترقة وطليلطة وقرطبة والجزيرة الخضراء. وعبثاً حاول عبد الملك أن يقضي على هذه الثورات، لذا لم يبق أمامه إلا أن يستعين ببلج بن بشر بن عياض القشيري الذي لم يكن يطيقه والذي كان محاصراً من طرف البربر في سبتة، وقد اشترط عبد الملك على بلج شروطاً مفادها أنه بعد القضاء على البربر في الأندلس عليه أن يعود مع قومه إلى سبتة، كما اشترط عليه أن يترك عنده رهائن في جزيرة أم حكيم. وقد رضخ بلج لهذه الشروط مكرهاً، فعبر البحر مع قومه الشاميين والذين كانوا يقدرون بجوالي 10 آلاف رجل استطاعوا أن يقضوا على الثوار في معركة دارت رحاها عند وادي سليط بالقرب من الجزيرة الخضراء سنة 124هـ. إثرها توجه عبد الملك إلى قرطبة ثم إلى طليلطة حيث هزم الثوار البربر، بعد ذلك طلب عبد الملك من بلج أن يخرج من الأندلس هو وأهله، فقبل بلج شريطة أن تكون قبلتهم تونس وليس سبتة، وكان عبد الملك إنما يريد أن يعيد بلج إلى بربر طنجة للقضاء عليه. وشاءت الأقدار أن مات أحد الرهائن واتهم عبد الملك بذلك، فهجم أنصار القتل عليه في قصره وأخرجوه منه وأسكنوه في دار يقال لها دار أبي أيوب، بعد ذلك قتلوه وصلبوه، وصلبوا معه خنزيراً عن يمينه وكلباً عن يساره احتقاراً له، ثم تولى بلج الولاية بعده.

- بلج بن بشر بن عياض القشيري (124هـ/742م): خلف مقتل عبد الملك بن قطن موجة من السخط والغضب في الأندلس، سواء من طرف ابنه قطن وأميه أو من طرف اليمينين بصفة عامة، أو من طرف عبد الرحمن بن علقمة اللخمي الذي كان عامل عبد الملك على اربونة. وقد انضم هؤلاء إلى البربر الأندلسيين الذين كانوا يتلهفون على الثأر من الشاميين الذين نكلوا بهم تحت قيادة بلج، أضف إلى ذلك أن بعض أصحاب بلج والذين كانوا ضد التنكيل بعبد الملك، خرجوا عليه وانضموا إلى قطن وأخيه أميه، والتقى الجيشان في مكان يقال له "اقوة برطورة" بالقرب من قرطبة قتل فيه بلج بن بشر كما انهزم جيشه.

- ثعلبة بن سلامة العاملي (124هـ-125هـ): نصب بأمر من الخليفة هشام بن عبد الملك، وبالرغم من أنه كان معروفاً باتزان واعتداله، إلا أنه كان ضعيف الشخصية وهو ما أثر على محدودية سلطته، مما أتاح للشاميين وأنصارهم أن يحاصروه في ماردة في يوم عيد الأضحى من سنة 124 هـ. إلا أن مساعدة عسكرية جاءت من نائبه في قرطبة، سمحت له بمباغته أعدائه الذين ألحق بهم هزيمة نكراء. وقد بطش بالشاميين وسبى نساءهم وأطفالهم وشيوخهم، وكان يبيعهم بأبخس الأثمان، حتى قيل أنه باع رجلاً بكلب. كما عاث رجاله فساداً في الأرض، فاستنجد بعض الأندلسيين بحاكم القيروان حنظلة بن صفوان الكلبي ليرفع عنهم الضرر. وبعد أن استشار هذا الأخير الخليفة هشام، عين عليهم والياً هو أبا الخطار بن ضرار الكلبي.

أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبي: (125-127هـ) أرسله والي إفريقية فقدم إلى الأندلس في رجب سنة 125هـ وبدأ ولايته بتأمين العرب البلديين والبربر على ممتلكاتهم ومصالحهم، كما قام بتوزيع الشاميين المتمركزين بقرطبة على نواح متعددة ومتفرقة من الأندلس تشبه بيئتهم، وعمل على القضاء على المنازعات القبلية بين السكان، وقضى على الفتنة، وأخرج رؤوسها من الأندلس، إلا أنه ما لبث أن مال إلى قومه من اليمانية وتنكر للمُضَرِّية، وعندما تدخل زعيم القيسيين الصميل بن حاشم (الملقب بذي الجوشن) لدى أبي الخطاب لم يستصغ هذا تدخله وأهانته في قصره، فخرج الصهيل

غاضبا وهو ينوي الانتقام لشرفه، فجمع أنصاره والتقى مع أبي الخطار في واد لكة بالقرب من شذونة في رجب 127هـ. وانهمز فيها أبو الخطار وفر من المعركة، إلا أن رجال الصميل تعقبوه وألقوا عليه القبض وأودعوه السجن، ثم نصب الصميل ثوابة بن سلامة الجذامي مكانه بعد موافقة والي القيروان عبد الرحمن بن حبيب الفهري. ثم فر أبي الخطار ولم يمت وكرر معركة بشقندة وهي معركة كبيرة قتل فيها أبو الخطار واستولى المضري على قرطبة واختار يوسف بن عبد الرحمن الفهري واليا عليها.

يوسف بن عبد الرحمن الفهري: (129-138هـ) تولى الأندلس سنة 129هـ دون مصادقة من إفريقية أو من دمشق التي كانت قد بدأت فترة من الضعف فلم تتمكن الخلافة من الإشراف على الولايات، واستقلت الأندلس بشؤونها.

استقل يوسف بولاية الأندلس نحو عشرة أعوام، واتفق مع الصميل بن حاتم زعيم المضرية على أن يتداولوا السلطة فيما بينهما، لكن الأمور لم تستقر، وتجدد النزاع بين المضرية واليمينية، وحاول يوسف عدة محاولات للقضاء على الصمئيل لكنه لم يتمكن من ذلك.

وكانت الحرب التي دارت رحاها بشقندة أثارت جذورا عميقة بين اليمينية والمضرية وبالغت في عدائهم، حيث حلت بالأندلس أزمة سياسية سميت بحرب القبائل، وأزمة اقتصادية دامت أكثر من خمس سنوات من 131 إلى 136هـ لان العرب والبربر على حد سواء هجروا الأرض وتركوها دون فلاح، لانشغالهم بالمنازعات والحروب العصبية العقيمة.

وفى هذه الأثناء جاء رسول من قرطبة بخبر مفاده أن فتى من بني أمية يدعى عبد الرحمن بن معاوية قد نزل في ثغر المنكب بالأندلس، واجتمع حوله أشياع بني أمية في غرناطة، وأن دعوته انتشرت بسرعة في الجنوب، وقد ذاع هذا الخبر في جند يوسف فأحدث فرغاً واضطراباً، وتفرق عنه جنده، وكانت المعركة الفاصلة بين الفريقين بالمصاراة سنة 138هـ حيث انتصر غبد الرحمان بن معاوية على يوسف الفهري والصميل بن حاتم واستولى على إمارة الأندلس وأصبح يعرف بعبد الرحمن الداخل.